

تقييد

الأستاذ أنور المداوي

« بداية ونهاية » نجيب محفوظ :

« بداية ونهاية » دليل مادي لا ينكر ، على أن الجهد والثابة جديران بمناق عمل فني كامل . لقد أتى على وقت طالت فيه أن نجيب محفوظ قد بلغ غايته في « زقاق المدق » ، وأنه إن يخطو بعد ذلك خطوة أخرى إلى الأمام . أقول غايته ، هو لا غاية الفن ، لأن « زقاق المدق » كانت تمثل في رأي الظنون أقصى الخطوات الفنية بالنسبة إلى « إمكانياته » القصصية . ولهذا ، خيل إلى أن مواهب نجيب قد « تبلورت » هنا وأخذت طابعا النهائي وتوقفت عند شوطها الأخير . . . ومما أيد هذا الظن أن « السراب » وقد جاءت بعد « زقاق المدق » كانت خطوة « واقعة » في حدود مجاله المؤلف ، ولم تكن الخطوة الزاحفة إلى الأمام !

كان ذلك بالأمس . . . أما اليوم ، فلا أجد بدا من القول بأن « بداية ونهاية » قد غيرت رأيي في « إمكانيات » نجيب ، وجعلتني أعتقد أنه قد بلغ الغاية التي كنت أرجوها له ، غايته هو وغاية الفن حين كانت الثابتان مطالبا عبر المثال !

إنني أصف هذا الأثر القصصي الجديد لهذا القصاص الشاب ، بأنه عمل فني كامل . هذا الوصف ، أو هذا الحكم ، مردد إلى أن أعماله الفنية السابقة كانت تنفق إلى أشياء ؛ تنفق إليها على الرغم من المزايا المختلفة التي تحتشد فيها وتحدد مكان صاحبها في الطليعة من كتاب الرواية !

ماذا كان ينقص نجيب قبل « بداية ونهاية » ؟ ماذا كان ينقصه في « خان الخليلي » و « القاهرة الجديدة » و « زقاق المدق » و « السراب » ، لقد كان نجيب في هذه الروايات الأربع ، يملك من الخطوط الفنية ما يتيح له أن يخرج « التصميم العام »

لل قصة وهو سلم في جهاته . . . ومع ذلك فقد كان ينقصه عنصر الالتزام الدقيق لحدود « الواقعية الأولى » في عرض حوادث القصة وتوجيه حركات الشخصيات . وأقول « الواقعية الأولى » لأن « الواقعية الثانية » كانت هي الساحة الكبرى التي دأب نجيب على أن يمرض فيها أكثر مما عاذجه البشرية !

إن الفرق بين هذين اللونين من الواقعية هو أن اللون الأول نقل « مباشر » لصور الحياة وطبائع الأحياء ، كما هي في الواقع المحس الذي تلمسه العين وتأفقه النفس . أعني أن تكون الحادثة القصصية والتموج البشري مما يقع كل يوم في محيط اللفظة البصرية والذهنية ؛ أعني مرة أخرى أن يكون تمثلنا لحوادث والشخصيات تمثيلا شعوريا لا ذهنيا عندما تقارن بين حقيقتها على الورق وبين حقيقتها في الحياة . هذا هو اللون الأول وهذه هي مظاهره ، أما اللون الثاني من الواقعية وهو ما نميز عنه بـ « الواقعية الثانية » ، فهو التصوير « التقليدي » لا « الطبيعي » للحوادث اليومية والتزطات الإنسانية . أو هو تلك النسخة من الحياة التي يمكن أن نقول عنها إنها « قريبة » من الأصل ، ولا يمكننا القول بأنها « طبق » الأصل ، ونسخة كمنه مما اقتربت من الواقع فهي نسخة « مقلدة » على كل حال . . . وقد يكون الفن في جوهره تقليدا للحياة ، ولكن رسالة الفنان هي أن يشمرنا بأن المشهد الذي يصوره أسيل لا أثر فيه للمحاكاة . والآن يتراء لنا فرصة للشك في أن هناك اختلافا بين الصورة الحقيقية والصورة المنقولة ، أو أن هناك حلقة اتصال مفقودة بين الواقع والمثال !

نجيب محفوظ في أعماله الفنية السابقة هو ذلك القصاص الذي يمثل « الواقعية الثانية » في الكثير الغالب من الأعيان . ولست أنكر أن « للواقعية الأولى » مجالا في فنه ، ولكنه المجال « المحدود » تبعا لطريقته الفنية التي تقلب عليه في كتابة القصة . هذه الطريقة الفنية أساسها أن نجيب مواع بأن يضع كثيرا من نماذج البشرية تحت مجهر التحليل النفسي ، ليتخذ من سلوكها الإنساني مادة الرئيسية في تحليل ما يقع تحت المجهر من « حالات مرضية » أقل إذا شئت إنه يطبق بعض الأصول من « علم النفس المرضي » على كثير من أبطال قصصه

وخبرته العميقة وفهمه الأسيل؛ فما هو الفارق بين طبيعة « الفهم » وطبيعة « التذوق » في حياة القصاصين؟ لتوضيح هذا الفارق الفني نقول: إنك تفهم الشيء بمقلك ولكنتك تتذوقه بشعورك، أعني أن الفهم أداء ذهن الفاحص، وأن التذوق أدائه الإحساس الرهيب. . . إنها طافتان: طاقة عقلية وطاقة شعورية، والذين قوبت عندهم الطاقة الأولى وضمت الثانية هم الذين تتوقد في نفوسهم شملة الفهم، وتخبو شملة التذوق، بالنسبة إلى كل قيمة من قيم الأشياء وكل معنى من معاني الحياة. إن هناك مثلاً من « يفهم » قصيدة من الشعر؛ يفهم فيها اللفظ والمعنى، ويفهم فيها الوزن والقافية، ويفهمها شرمًا إن طابت إليه الشرح والتفسير. ومع هذا كله فهو لا يستطيع أن « يتذوق » فيها الوحدة الفنية، ولا الظلال النفسية، ولا التجربة الكبرى وهي معبوية في بوتقة الشعور. . . وقل مثل ذلك عن الذي يفهم « النوتة الموسيقية » للحن من الألحان، ثم لا يتذوق جمال اللحن، ولا يهتز فيه لروعة الإيقاع، ولا يستجيب لأنغامه التصويرية!

إن فهم الحياة هو أن تفتح لمشاهدها أبواب العقل، وأما تذوق الحياة فهو أن تفتح لتجاربها أبواب القلب. . . إننا « نراها » هناك تحت إشعاع الومضة الفكرية، و« نلتفأها » هنا تحت تأثير الدفقة الوجدانية؛ وعلى مدار هذه الكلمات نستطيع أن ننظر إلى بحيب محفوظ في أعماله الفنية السابقة. . . إنك لا نستطيع أن تجرده من التذوق الشعوري للحياة، ولكنه التذوق العابر الذي لا يتناسب وخبرته العميقة بها وفهمه الأسيل!

ويبقى بعد ذلك عنصر فني ثالث كان ينقص هذا القصاص المرهوب. . . أندري ما هو؟ هو تلوين الأسلوب القصصي تلويها خاصا بتلام وجوه الشهد الصور، أو طبيعة التوزيع البشري المرسوم. . . في القصة مثلاً موقف إنسانى يتطلب عند تصويره أسلوباً معيناً تتوفر فيه إلمامات الشاعرية، وموقف آخر لا يحتاج فيه إلى مثل هذا الأسلوب الشعري، وعندما نتناول اللامح المادية لشهد من المشاهد أو لشخصية من الشخصيات، بأسلوب السرد الفني المألوف الذي يعتمد له القدرة على التقاط الجزئيات، وهناك موقف ثالث يفرض علينا أن نعالجه بأسلوب آخر هو

« المنهرفين »، وأنه تبعاً لهذا التطبيق يفرض على فنه أن يسير في خط اتجاه نفسه محدد ندرر فيه الشخصية « الريضة » من البداية إلى النهاية؛ تدور فيه بقوة الدفع « المرضية » التي تبرر سلوكها في محيط « الواقعية الثانية ». . . من هنا يخرج بحيب بعض الشيء على منطق « الواقعية الأولى »، لأنه يجبر حوادث القصة وحركات الشخصوس على أن تسير نحو غاية معينة، لتحقيق المنهج الفني الذي يلتزم عند النتائج المادية تفسيراً لظاهرة النفسية أو تشخيصاً « للحالة المرضية ». . . ونشمر أن التشخيص النفسى لهؤلاء، « المرضى » غير سليم في بعض الأحيان، ومرجع هذا الشعور إلى أن سلوكهم مفروض عليهم فرضاً ولا يمكن أن يكون فيه حرية الاختيار!

هنا مفرق الطرين بين واقعيتين: « الواقعية الأولى » و« الواقعية الثانية ». . . هذه صورة « تقليدية » للحياة كما قلت، وتلك صورة « طبيعية ». وموقف الفن بينهما واضح عندما نضع أنفسنا أمام هذه الحقيقة، وهي أن النموذج البشري في حدود الواقعية الأولى موجود في الحياة بالفعل، وأنه في حدود الواقعية الثانية موجود في الحياة « بالإمكان ». . . أى أننا إذا رجعنا إلى بعض الشخصيات التي رسمها الأستاذ محفوظ في أعماله الفنية السابقة، وسألنا أنفسنا هل هي موجودة بيننا حقاً تروح ونحى، وتقع عليها المين وتدركها الحواس، ونشمر نحوها بشئ من الألفة التي تخلق بيننا وبينها نوعاً من المشاركة الوجدانية؟ إذا سألنا أنفسنا هذا السؤال فإننا ننهي إلى هذا الجواب: وهو أنها غير موجودة « فعلاً » ولكنها « ممكنة » الوجود؛ أى أن وجودها غير متمذر لأن منطق الحياة يهضمه إذا « وجد » وكذلك طبيعة الأحياء. ومن هنا نفلس الفارق الدقيق بين كلمتين: (موجود) . . . و(ممكن أن يوجد)، وبالطبع لا يضيق الفن بالكلمة الأخيرة وإن كانت يفضل الكلمة الأولى بلا مراء!!

هذا عنصر من العناصر الفنية كان ينقص بحيب محفوظ. ومة عنصر آخر كان ينقصه، وأعني به « التذوق الشعوري » الكامل للحياة. . . هناك قصاص فهم الحياة حق الفهم وخبرها كل الخبرة، ومع ذلك فهو يتذوقها بقدر معلوم لا يتناسب

هذه الأم العظيمة كان عليها أن تكافح بمد موت الزوج
انتخا من هؤلاء الصغار رجالا يواجهون الحياة، وهؤلاء الأبناء
الأربعة لم يكن لهم مورد في الحياة غير تلك الجنبات الخسة التي
كانت تأنيهم من معاش الوالد الراحل ؛ كامل افتدى على الذي
أنفق في خدمة الحكومة زهرة العمر وعصارة الشباب وماذا
تعمل الجنبات الخسة لأسرة تواجه مطالب الحياة من مأكل
ومسكن ومابس ومحافظة على المظهر القديم أمام الناس ! هنا
برز دور الأم . الأم الصابرة العاقلة الحازمة المكافحة في
سبيل البقاء . لقد باعت أثاث البيت قطعة بعد قطعة لتسكت
البطون الصارخة من وطأة الجوع ، وهجرت « الشقة » التي
كان يدخلها النور والهواء ولجأت إلى أخرى عشت فيها البؤس
والظلام توفيراً لقروش معدودات ، وقضى حنين وحنين أيام
الدراسة الثانوية بلا « مصروف » يومي يشمرها بأن للحياة
فرحة يستشعرها الصغار من الأحياء ، ومضت نفيسة تطرق
الأبواب لتحصل لهم على الأجر الضئيل الذي كان يأتيها من
حياكة الثياب بين حين وحين ، وهام حسن الذي دله أبوه حتى
طردته المدرسة ونبذته الحياة ، هام على وجهه في الطرقات بحثاً
عن اقامة الميش من كل طريق غير شريف ا
ودارت مجلة الزمن والأم العظيمة الصابرة ما زالت تكافح ..
كانت الطريق طويلة ، رهيبية ، قد انتحرت على جانبها الصخور .
ومع ذلك فقد مضت في طريقها لا تلوى على شيء : يد تجفف
العرق التصيب من حرارة الكفاح ، ويد تدفع إلى الأمام
بالقافلة المكدودة التي أنفكها طول السير ! لقد كان هناك أمل ..
أمل يترامى على جنبات الأفق البعيد فينبهم أنهم مشردون
وإن ضمهم مسكن ، عراة وإن سترهم ثوب ، جياع وإن حصلوا
على الرغيف . أمل يتمثل في القند الفرب الذي سيفتح عيني الأم
الصابرة المكافحة على منظر فريد ، تسمد فيه برؤية الصغيرين
وقد أصبحا رجلين ، يشغل كل منهما بعد الفراغ من التلميم مكانه
المنتظر في دنيا الناس ا
وجاء القند المرتقب يحمل إليهم أول بشرى .. لقد ظفر

أسلوب التجريد والتحليل ، حين نعرض طريقة تلك اللحظات
الواخزة بألوان من الحركة الذهنية أو النفسية ا
نجيب محفوظ في أعماله الفنية السابقة يكاد يستخدم أسلوباً
واحداً في تصوير شتى المواقف والسمات ، وأعني به أسلوب الرد
الفني المؤلف .. مثل هذا الأسلوب إذا ارتضيناه في تلك المواقف
المهيأة لتجسيد الملامح المادية المشاهد والشخص ، ونجدارنا
عنه في تلك المواقف الأخرى المخصصة لتسجيل الحركة الجائشة
في الذهن أو المتلججة في الشهور ، فإننا لا يمكن أن نسيفه بالنسبة
إلى المواقف الإنسانية، لأنه يفقدها طابع الجو الشعري الذي يجب
أن نميش فيه ، هذا الجؤ الذي إذا فقدته تعرضت للممود
واعترها الفتور ا

كل من هذه العناصر الفنية الثلاثة التي كانت تنفصه بالأسس:
عنصر الالتزام الدقيق للحدود « الواقعية الأولى » ، وعنصر
« التذوق الشعوري » الكامل للحياة ، وعنصر « التلون
الخاص » للأسلوب القصصي ؛ كل منها قد احتشد له اليوم في
صورته القوية الرائمة في « بداية ونهاية » ، وإذا هذه الرواية
القصصية تعد في رأى النقد عملاً فنياً كاملاً لا مثيل له في تاريخ
الفنسة المصرية . باستثناء « عودة الروح » لتوفيق الحكيم ا
« بداية ونهاية » قصة مصرية تمثل حياة أسرة .. أسرة
تذوقت طعم الفقر ونجرت ذل العاقبة ، بمد أن فرقت بينها وبين
عائلها تلك اليد التي تفرق بين الأحياء . والفقر وحده هو المسئول
عن البناء الذي تصدع والشعل الذي تبدد ، مثل الأسرة الكادحة
التي كان للتضحية عند كل فرد من أفرادها طعم ومذاق .. الأم ،
وحسن ، وحسن ، ونفيسة ؛ كل نموذج من هذه
النماذج البشرية التي كونت الهيكل الإنساني السام للقصة ، قد
فهم التضحية فيها خاصاً وكانت له فيها وجهة نظر خاصة ؛ وجهة
نظر حددت الطريق وقررت المسير .. كانوا فلاة حياة ؛
فلاسفة أخذوا الفلاسفة لمنطق الشهور المحترق بلهب الحرمان ،
حتى خرج بعضهم من هذه الفلاسفة وهو منحرف العقل مريض
النفس ، والفقر وحده هو المحور الرئيسي الذي دار حوله السلوك
الإنساني لهؤلاء المرضى المنحرفين ا

المقادير؟ لقد جاع . . جاع لأنه لا يصلح لأى عمل « نظيف » ،
لقد فقد القدرة على أن يجيىء حياة نظيفة ، مرتبة ،
هادئة ، فيها أمن وفيها استقرار ! هناك فى الحياة خط سير
يستطيع أمثاله أن يسلكوه . . خط سير يسمح بالدروب والمنحنيات
التي تختفى فيها الكرامة ، والشرف ، والفضيلة ، والإنسانية . .
فيم ستختفى إلى الأبد ، ومثل ستذهب إلى غير ممااد . . ولكن
ستظهر بعدها اللقمة اللدسة التي تشبع كل معدة خاوية ، وسيقبل
فى إثرها الثوب الجديد الذي ينعش كل جسد مهان ، وستختطر
البسمة المشرقة التي تمدد كل شعور ملتاع ، وهذا هو خط السير
الذى سلكه الفتى الشريد . . يتجر بالخدرات ، وبميش مع
الماهرات ، وبالها من حياة . حياة ينكرها عليه الشرفاء من
أسرته وفى طليعتهم أخوه حسين ، ذلك الفتى الطموح الذى
تخرج فى السككية الحربية وأصبح ضابطا فى سلاح الفرسان !

من فيض هذه الحياة الآتمة المايطة استطاع حسن أن يحلق
من الدم حياة أخوين . . ساعد الأخ الموظف حتى استقر فى
وظيفته ، ساعده بتلك الأساور الذهبية التي سطا عليها من بيت
عشيقته ذات صباح ، ولولا التضحيات المائالة التي قدمها لأخيه
الضابط لما استطاع أن يسدد أقساط السككية الحربية ، وأن يرتدى
الحلة الأنيقة ذات النجمة الصفراء . . ومع ذلك يميره الضابط
الشريف بحياته الشائنة ، ويحاول جاهدا أن ينتقله من وحدة
الإثم والهموان ! لقد انحرف حسن وحاد عن الطريق ، ولكنها
فلسفة حياة . . وفلسفة الحياة تفرض على أصحابها التضحية فى
كثير من الأحيان !

أما حسين ، الملازم حسين كامل على فقد كانت تضحيته من
ذلك النوع الزادر فى حياة البشر . . كان فتى طموحا منذ نشأته
الأولى فى « عطفة نصر الله » بحى شبرا ، تلك المنطقة الحاضرة
التي لم نجد من طموحه يوم أن كان تلميذا صغيرا بالمدسة
التوفيقية ! كان طموحا رغم فقره ، ورغم حاجته ، ورغم البيئة
التي نشأ فيها ولم تكن توحى لأحد من أبنائها بأمل أو طموح . .
إنه يقارن منذ أن صار ضابطا بين يومه وأمه ، فيشعر بهول

حسين بالكالوريا والتحق بإحدى الوظائف فى مدينة طنطا . قبل
الوظيفة الصغيرة ليستطيع أن يمد يد العون إلى أسرته . أخوه
حسين ، أمه ، أخته نعيمة ، كان من الظلم ألا يختصر طريقه
فى الحياة ليخفف عنهم جزءا من أعباء الحياة . ترى أكان
يمكنهم أن يصبروا على شظف العيش حتى ينتهى من دراسته
المالية ؟ محال ! وحين اطمانت نفسه إلى هذه الحقيقة أقدم على
التضحية وهو سعيد مرتاح البال

لقد ضحى حسين بأماله المراض . . إن الصير الذى ينتظره
إن يفترق عن مصير أبيه ، وهو مصير الألوفا من الموظفين
الصغار ! مستقبل محدود مظلم ولكنها فلسفة حياة . . وفلسفة
الحياة تفرض على أصحابها التضحية فى كثير من الأحيان !
ونعيمة . . لقد ضحت هى الأخرى وكانت التضحية فادحة ،
ضحت بالشرف الذالى والعرض المصون . . كانت فقيرة ، ودميمة ،
وإن هو الزوج المأمول وقد جرمت إلى الأبد عزة المال ونعمة
الجمال ؟ رجل واحد يستطيع أن يقبلها زوجة وتعيش معه تحت
سقف واحد ، رجل مضيق فى الحياة مثلها فقير دميم ! ولقد
وجدت يوما هذا الرجل . . هذا الحيوان الذى استجاب له
مرغمة تحت تأثير الحلم الجليل ، حلم كل عذراء قبيحة الوجه
وجدت بعد طول انتظار من يقول لها إنك جميلة ، يا زوجة
الغد القريب !

وسقطت نعيمة . . وفر الحيوان الذى سلبها الشرف وتركها
وحيدة تواجه الخائفة فى معركة الصير . وقالت لنفسها يوما :
ماذا بق لك يا بائة ؟ لا مال ، ولا جمال ، ولا شرف . . هل بق
شىء يحرصين عليه ؟ هل هناك ذرة من أمل فى زوج جديد ؟
وحين قهقه فى أعماقها الجواب . . انطلقت تلبى رغبات الجسد
عند كل عابر سبيل ! وأما ، وإخوتها ، لا أحد يعلم بما انتهت
إليه من ضياع . انحدار ذل الهوة المحيقة الرهيبة ولكنها
فلسفة حياة . . وفلسفة الحياة تفرض على أصحابها التضحية فى
كثير من الأحيان !

وحسن ، ذلك الشريد المائم فى الطرقات . . ماذا فعلت به

المر فبئسرها مع الريح في كل طريق . . لقد حيل بينه وبين حبه الجديد ، حين رفضت الأسرة المريقة المترعة أن تصاهر ضابطا يتهامس الناس حول أخته ويتحدثون عن أخيه . . وحين أفاق الملازم حسنين من الصدمة الأولى زلزلت كيانه الصدمة الثانية ، حين جىء إلى بيته بأخيه حسن محمولا تنزف منه الدماء ، وعليه أن ينتظر اللحظة الرهيبة المقبلة في أعقاب الشقيقين المجرم طريد القانون . . وأقبلت اللحظة الرهيبة المنتظرة ، حين طرقت الباب رجل من رجال الشرطة ليستدعيه إلى قسم البوليس . حسن ! بالطبع ليس هناك غير حسن ، تلك السحابة السوداء في أفق يندر باليوم . . وحوله ، حوله وحده ينتظره هناك سؤال وجواب !

وفي قسم البوليس وجد أخته المساقطة بدلا من أن يجد استجوابا عن أخيه الطريد . . لقد ضبقت نفيسة في بيت يدار للفساد ! وأظلمت الدنيا في غيبه وضائق القضاء . . لقد فقد كل شيء : فقد حبه ، وفقد أمه ، وفقد سمته ، وفقد في الحياة الصغيرة التي ملأها بالأحلام كل حلم جميل ! وأخذ أخته وخرج إلى أين ؟ لا يدري فكره ولا تدري قدها . . إن في أمواج التيل الحانية مثوى لكل بائس تريد منبوذ من الحياة ، هكذا قالت له نفيسة حين سألتها أن تحمد لنفسها الطريق ! ومضت أمامه ومضى خلفها إلى هناك . . إلى حيث يتاح للبائسين أن يعرفوا طعم الراحة بعد طول المناء ! وقال الملازم حسنين لنفسه : لقد حكمت عليها بالإعدام فقبلت الحكم وهي راضية صابرة مستعدة للقضاء . . وما كان أشجعها وهي تستقبل الموت وكأنها تستقبل الزوج الحبيب الذي قضت العمر تفتش عنه في دروب الأمل . . امرأة ضحكت بأيام الحياة فرارا من قسوة الحياة ، وأنت ؟ أنت يارجل ، ماذا تنتظر !؟

ترى هل كان الملازم حسنين شجاعا حين لحق بنفيسة ، أم كان جبانا حين فر من لقاء الناس ؟ مهما يكن من شيء فقد كانت تضحيته فلسفة حياة . . وفلسفة الحياة تفرض على أصحابها التضحية في كثير من الأحيان !

أنور المعداوي

الفارق بين حاضره وماضيه هذه العطفة الحفيرة التي شهدت أيام يؤسه ربؤس أسرته يجب أن تفادها الأسرة إلى مكان بعيد ؛ مكان يسدل على الماضي البغيض ستارا من النسيان . . حسبه أن تلك العطفة القذرة قد شهدت أثار بينهم وهو يباع قطعة بصد قطعة ليهبشوا على الكفاف . وحسبه مرة أخرى أن تلك العطفة القذرة قد شهدت أخته نفيسة وهي تسمى إلى كسب عيشهم بمد أن كلت قدها من السير وتمت يدها من طرق الأبواب . وحسبه مرة ثالثة أن تلك العطفة القذرة قد شهدت رجال البوليس وهم ينتحون المسكن الذليل بحثا عن أخيه المجرم الطريد . . كل شيء قد فقد يستطيع حسنين أن يصلحه إلا شيئا واحدا يتمذر به الإصلاح ، وهو أن يهتدى حسن إلى الطريق القويم ! لقد استطاع الفتى الطموح أن ينتقل بأسرته إلى مصر الجديدة ، وأن يرد إلى نفيسة كرامتها وكرامة الأسرة حين حال بينها وبين الموان !

وهناك ، في ذلك المسكن الجديد الآمن تنفس حسنين الصعداء . . لقد بدأت الحياة بتسم بمد طول التجهيم والمبوس ، حين انقطعت أخبار حسن الذي كان يهدد طموحه وسمته ونظراته إلى المستقبل كلما فكر فيه ! و « بهية » ، تلك الفتاة التي أحبها في عطفة نصر الله وخطبها إلى أبوها وهو تلميذ صميم ؛ تلك الفتاة « البليدى » الفقيرة الساذجة لم تمد تصلح لأن تكون زوجة لضابط عظيم . . إن زوجة المستقبل وشريك الحياة هناك في ذلك القصر الأبيض الذي ذهب إليه « خاطبا » منذ أيام . إنه يريد أن يقطع كل علاقة كانت تربطه بعطفة نصر الله ، ولو كان له في تلك العطفة حب قديم ، حب قضى بين أحضانها أجل أيام العمر وأسعد لحظات الشباب !

لقد اختفى حسن ، واستقرت نفيسة ، وذهبت بهية ، وبقي أن يفتح القلب على مصراعيه ليستروح أنسام السادة التي كان يحلم بها منذ بعيد . . ولكن القدر لا يريد للأسرة البائسة المسكينة أن تستريح ، ولا يريد للفتى الطموح الأمل أن يسمد بأحلامه وأمانيه ! لقد هوى بضربانه السريعة المتلاحقة على أحلام